فتاة فلسطين

رو يدك ايها الشاب الفلسطيني . انت يا من شربت مع اللبن احتقار المرأة واعتقاد الخفة فيها . اغمض من طرفك واخفض بصرك وسر في سبيلك متأدباً رزيناً اذا قابلت فتاتنا السافرة ذات القيمة الكبيرة الحجم المملوءة بالازهار والاطيار التي تكاد تخفي وجهها صيوحاتيره عينان براقتان تبعثان نوراً ينبيء عن نفس عالية وفؤاد ذكي . وان هزك الطيش وحدت بك الخفة لرشقها بكعب سيكارتك المشتعلة او لترميها ببعض عبارات تدرك هي فيهما دون ان تفهم مغزاها فان عصاها التي علمتها على استعمالها سوف تلمس جلدك فترغمك على احترامها ولو لم تعتد عليه وان سألت علمت انها قادمة اما من باريس او من تولوز او من نوزان التي حيث تلقت العلوم العصرية بكل فروعها فلم تدع قوة من قوى دماغها العاقلة ولا عاطفة من نفسها حتى ثقفتها وهذبتها ورفعتها فادركت ما لها وما عليها وكيفت حياتها على الطريقة المثلى التي تجلب لنفسها ولذويها السعادة والهناء

دعها تسير بجانبك فرحة بالوجود مستلذة بالبقاء واياك ان تقاطع بكلامك مجرى افكارها اذ تنشلها به من الخيال المؤدي بها الى مباركة الانسانية الى الحقيقة التي ترغمها على لعنة بعض البشر

دعها تسير بجانبك وهي آخذة بتقسيم قطعة موسيقية قد لحنها فاكنر او بيتهوفن او شوبان . او تخاطب كبار الكتبة المتقنين وتراجع في ذاكرتها اقوالهم وآراءهم . كيف لا ومبادىء فيكتور هيكو وزولا ولوتي وغيرهم قد اخذت من نفسها كل مأخذ فطربت بها واستغفها السرور فمالت للنزهة وتسريح الخاطر بمشاهدة اعمال الله في خلقه فخرجت من بيتها بعد ان اكملت زينتها وزادت وجهها اشراقاً بملابس تناسب قوامها ولون بشرتها زيتياً ولوناً . ومشت وهي مملوءة بالاماني والآمال لثقتها بان كل حي يحمل وجهاً انسانياً له الحق الاكيد الثابت بالاحترام والاعتبار . لانه مهما كان ساقطاً في سلم المدنية تبقى به قوة كامنة وميل مخبر خفي يدفعه متى توفرت لديه الاسباب للقيام بمنافع عديدة للانسانية فكيف بها وهي تعلم انها اجمل الكائنات خلقاً واكملها خلقاً

على محبتها وتشاطها بتوقف عمار البيوت وانشاء العائلات . وعلى حنانها وافكارها نفسها ونسيانها مسراتها الذاتية تتربى الصغار وتقوم اخلاق الفتيات والشبان . فان كنت لا تفكر ان المجرم الساقط يسهل لديه ان يفتدي نفسه ويكفر عن جنايته بندامة كبيرة وافعال فاضلة

تحملك على احتقاره واحتقارهم بعد ان كنت تعدّه اشدّ ضرراً من الافعى واعظم اذية من العقرب فتوسع له مجالاً بجانبك ليتمتع بملذات هذا الكون وينال نصيبه من نعيمه فلماذا لا تريد ان تعترف بالحق الثابت الأكيد الذي وهبه الخالق لكل الاحياء على السواء ومن جملتها ذلك الكائن الادبي العاقل الا وهو الفتاة ذلك الحق الذي يخوّلها حرية القول والفعل فتذهب حيثما تريد وتسير كيفما شاءت وتشتغل بما تحب وتقضي وقتها على الطريقة التي تجدفيها الفائدة والصلاح لها دون ان تتعرض لها وتسيطر على حركاتها وسكناتها وتحجرها على الانزواء ضمن جدران البيوت خوفاً من امثالك كائنا الطبيعة وجمالها والمخلوقات ومناظرها لم تخلق الا لتكون طوع بنانك ورهن اشارتك فيا ايها الرجل انت يا من يصرعك درهم من الكبرياء تاخذه علاوة عن القدر المعين لك وشوكة دقيقة تدخل في ابهامك لقعدك عن السعي والحركة كيف جاز لك ان تتسلط وتسيطر على اخت لك حملتها الطبيعة كل شقاء وجودك فتأسرها وتستعبدها لاهوائك وتسجنها ضمن جدران منزلك بينما انت تسرح وتمرح فتصيح وتمشي وتروح وتغدو حراً كالهواء لا يعارضك في افوالك واعمالك معارض

لقد آن لك ان تنبذ المبدأ الذي سرت عليه وسيرت فتياتك مكرهات على اتباعه (ان البنت فبرها ببيتها) فتزلت واياها الى ادنى دركات الشقاء لان من اذية ومامن ضعة يرمي الرجل المرأة فيها الا ويصيبه اعظم نصيب منها وكل سلطة يستعملها الرجل ليضم من شأن المرأة لا تؤدي الا لاستعباد وتحقيره وكل عمل يأتيه لرفعها يزيده قوة وعظمة ومجداً

نعم ايها الشاب الفلسطيني لقد آن لك ان تنبذ اهواءك جانباً عندما ترى فتاتنا وتفكر انها انسانة كما انك انسان وانه لا يحق لك ان تنظر اليها نظرة شريرة كما لا يحق لك ان تعتدي على رفيقك وتسلبه جوهرة في صدره تزين عمقدة رقبته

انتبه لشؤونك واهتم بما يعنيك اترك الامور الزهيدة الثانية وحوّل عزائمك للانتفاع بتلك الفروص العظيمة التي يلقيها عليك جيرانك الاغراب الذين يخاطرون بك من كل جانب اولئك الذين جاؤك منذ مدة قليلة وهم لا يملكون سوى نشاطهم وحبهم للشغل واتقانهم معرفة كل مهنة يطلبون مزاولتها فجمعوا كلمتهم والفوا الشركات وهيأوا رؤوس الاموال الكافية للقيام بمشروعاتهم الزراعية على احدث طرز واتحدوا سوية لجلب كل امر يهيء لهم سبل النجاح

اشتروا اراضيك القاحلة التي لم يكن ينبت فيها سوى الاشواك والادغال وحولوها لجنات تجري من تحتها الانهار بينما انت في بحار الجهل غارق ولكل مستسلم تشتغل من السنة ربعها او ثلثها وتقضي باقيها بما لا يجلب لك نفعاً ولا يدرأ عنك ضرراً . صناعتك في يوار ،

وما راج منها سوى صناديق البرتقان التي لا تقتضي ذكاءا ولا مهارة ولا تتطلب اتقانًا · برتقالك الذي يبيعهُ معيشة أكثر قومك يرمى نصفه حين وصوله للمدن القاصية التي يبتاع فيها ليصرفى الفساد والعفونة اليه وذلك لعدم وجود سفن تحمله رأسًا منذ قطافه الى تلك المدن النائية بل يطوف على كل شطوط البحر المتوسط والاتلانتيك في سفن الدول الزرية التجارية التي تضع عليك كل الحقوق ولا تحمل اقل مسئولية · فتحك يطحن في مطاحن لا نصيب لك فيها سوى ما يتبقيه منك بعض العملة الذين يديرون رحاها · كرومك عايلة مقيمة بينما ترى كروم جيرانك كمروج سندسية تسر الخاطر وتشرح الناظر وانت اردت ان اعدد لك عوامل انحطاطك لاعوزني الوقت وفوق كل ذلك فان نساءك اللواتي من امهاتك واخواتك في استعباد معيب (رأيت رأي العين شابًا من الوجوه يلبس الزي الافرنجي وقد تعلم في مدارس الغرير في يافا حتى بلغ سن الثامنة عشرة يمدُّ رجليه لوالدته لتقلع له تعليه)

فان كنت بارًا اي زارعًا في جنائن البرتقان لم تشتغل الا بما طاب لك ولذَّ وحالما تلاقي جهداً تكف عن العمل وتكلف نساءك بكلما زاد عناؤه وكثر شقاؤه فهن يساعدن بالفلاحة والسقي والقلع والقطاف وعلف الحيوانات وادخالها الى حظائرها · فضلاً عن خدمة بيوتهن الحقيرة بحيث لا يجدن دقيقة واحدة يستنشقن بها النسيم البليل او يسرحن الناظر في مناظر تلك النباتات والاشجار التي بذلن عرق القربة لانمائها وسقيها وتعهدها بالعناية · و بينما تكون اولادهن حفاة عراة ذكوراً واناثًا · ترى انت على كراسي التهاوي مرتديًا بالبياض تدخن الشيشة وتعرض للفتيات وان تمتعت يومًا من امرأتك تذمرًا او تقريعًا تهددها بالضرب والطرد تترعمها على السكوت مكرهة

اما اذا كنت تاجرًا و كان رأسك مفعمًا بالمبادئ السقيمة العقيمة التي ملأ دماغك بها استاذك من ان المرأة ضعيفات الارادة ضعيفات العقول لا قوة لهن على مقاومة التجارب ولذلك يجب عمل كلما بالوسع لعدم تخويلهن الحرية للسير في الشوارع ومحلات النزهة ، نفلت على امرأتك ولم تسمح لها ان ترى شخصًا لم تكن قد استأذنتك قبلاً برؤيته و يا ويلها لو خالفت الامر · بينما تقضي انت وقتك بما لا طائل تحته · وقد فاتك بالكلية ذاك الحديث القائل : اعمل لدنياك كانك تعيش ابداً واعمل لدينك كانك تموت غداً · وعندما تقفل مخزنك لا تكاد تزدرد عشاءك في بيتك حتى تغادره وتعاود الكرة الى القهوة حيث تصرف السهرة مجتمعاً برفقائك بينما تكون الذكور من اولادك مجتمعين في الشوارع والمتعطفات